مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (4)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (4) 2014

المعاني المتعددة لأنواع الجوهر في فلسفة أرسطو

الدكتور عدنان ملحم*
زهير عمران**

(تاريخ الإيداع 16 / 4 / 2014. قبل للنشر في 14 / 7 / 2014)

□ ملخّص □

تعد فكرة الجوهر من المفاهيم الأساسية في فلسفة أرسطو وفي تناولنا لهذه المشكلة كون قد بحثنا جانباً مهماً ترتكز عليها معظم فلسفته وبخاصة مشكلة الوجود والمعرفة. وفي بحثنا لهذه المشكلات سوف ينقسم عملنا إلى محورين رئيسيين المحور الأول تناول فيه معاني الجوهر، ماهيته، صفاته، أما المحور الثاني يتعلق بأنواع الجوهر ومعانيه في جوانب فلسفة أرسطو المختلفة، وهي الجانب الميتافيزيقي والطبيعي والمنطقي، في الجانب الميتافيزيقي تركز البحث على معنى الجوهر بوصفه مفهوماً مجرداً ما تم بناؤه لا يوجد في موضوع، أما في الجانب الطبيعي فقد أوضحت أنواع الجوهر في علم الطبيعة وعلاقتها بالجوهر العقلي أما في الجانبي المنطقي تركزت الدراسة على أهمية الجوهر بالنسبة للمقولات بوصفه الأول ضمن إطار الموجودات لا يوجد في موضوع بينما الجواهر الثواني التي هي الأجناس والأنواع هي التي تقال على موضوع وهو الجوهر.

الكلمات المفتاحية: الجوهر – الصورة – الماهية – الهيولى– المادة.

* أستاذ مساعد – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق– سورية .
**طالب دراسات عليا(ماجستير)– قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (4)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (4) 2014

The Multiple Meanings of Substance in Aristotle

Dr. Adnan Mulhem*
Zuheir Omran**

(Received 16 / 4 / 2014. Accepted 14 / 7 / 2014)

□ ABSTRACT □

Substance is one of the principal concepts in the philosophy of Aristotle. In dealing with this problem, we will have considered an important part on which is built most of his philosophy, particularly ontology and epistemology. The paper for this purpose is divided into two sections. The first section looks into the meanings of substance, its essence and qualities. The second section deals with the different types of substance and its meanings in different areas of Aristotle's philosophy. Respectively, these include the metaphysical, the natural and the logical areas. In the metaphysical subsection the paper focuses on the meaning of substance as a self-sufficient abstract concept. In the natural subsection, we have outlined the types of substance and their relation to the mental substance. The logical subsection centers on the importance of substance with regard to the statements, since it is the first existent, not to be found in any subject, while secondary substances are restricted to one subject, which is the substance.

Keywords: substance, form, essence, hyle, matter.

* **Associate professor, Department of Philosophy, Damascus University, Syria.**
** **Postgraduate student , Department of Philosophy, Damascus University, Syria.**

مقدمة:

يفصح تاريخ الفكر الفلسفي عن نفسه بوصفه يقوم على مشكلتين أساسيتين هما مشكلة الوجود ومشكلة المعرفة، أي بين ماهو ذهني وما هو واقعي، ولما كان الجوهر هو القاعدة الأساسية لهاتين المشكلتين، وإذا بحثنا في فكرة الجوهر بحثاً شاملاً نكون بذلك قد تناولنا المشكلة الأساسية التي تتضمن جانباً مهماً في الفلسفة برمتها، فالجوهر منه ماهو ميتافيزيقي (عقلي) ومنه ماهو مادي (محسوس) وهذا موضوع علم الطبيعة، وجوهر(منطقي) هو جوهر المقولات.إن فكرة الجوهر ليست فكرة أرسطية محضة بل لقد سبقه إلى ذلك فلاسفة الطبيعة الأوائل إلا أن فكرتهم عن المبدأ الأول اقتصرت على ما هو مادي و لم ترتقي إلى مستوى التفسير النظري كما كان ذلك عند سقراط وأفلاطون حيث كان لهما الأثر الكبير على تطور هذا المفهوم عند أرسطو، إن من الضرورة المنهجية، وإن كان بحثنا يقتصر في فلسفة الجوهر عند أرسطو، لأبد أن نشير باختصار شديد إلى فكرة الجوهر في جذورها ونشأتها وخاصة عند فلاسفة الطبيعة الأوائل.

أهمية البحث وأهدافه:

إن تيار الفكر سيال، حيوي متدفق، إذ أن الحاضر العلمي والفكري لم ينشا طفرة بلا مقدمات، بل ترتب على ماض قريب وبعيد للفكر والعلم، واعتمد عليها في نشأته وفي تطوره، كما إن الأبحاث التي تتصل بالتراث العلمي والفلسفي والتعريف بها له من القيمة ما قد يجعل منها نواة لأبحاث أخرى.

منهجية البحث:

سوف أعتمد في هذه الدراسة على مناهج متعددة كالمنهج التاريخي والنقدي والاستقرائي بهدف الكشف عن بعض المفهومات الغامضة ومحاولة التمييز بين ما هو عقلي وما هو مادي في ما يتعلق بمشكلة الجوهر.

أولاً – ماهية الجوهر وصفاته:

قبل أن نستطرد في بحث فكرة الجوهر علينا أن نتساءل أولا عن الدافع الذي دفع بالإنسان إلى تصور هذه الفكرة؟ 0 وهل من الضروري القول بفكرة الجوهر والبحث عنها وراء الظواهر؟ إن محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها تقودنا إلى قيمة النظرة الأولى للموجودات، ولتأمل الطبيعة، وهذا كان متجلياً عند فلاسفة الطبيعة الأوائل للعثور على أصل محدد ترتد إليه الموجودات أو تصدر عنه، ومن البديهي أن نقول أن هناك مجموعة دوافع لتصور فكرة الجوهر وهي الأشياء عينها بوصفها أمام الحواس والذات التي تقف في مقابل تلك الأشياء وبالتالي هذه الأشياء ليست فارغة فهي في باطنها تتضمن على معنى روحي كان سبب الدهشة الأولى.

ومن هذا يمكن القول أن البحث عن أصل الأشياء ينتج عن سبب مهم وهو الكشف عن وحدة الأشياء الشاملة ولكن المبدأ في تلك المرحلة كان مبدأ مادياً وليس عقلياً وعلى الرغم من ذلك هدف ذلك المبدأ للكشف عن الحقيقة التي تضم الأشياء جميعاً، ولكنه ظلّ ينطوي على نقص شديد واختلاف كبير بينه وبين الأشياء، لأن الأشياء غير متجانسة بل هي متمايزة في الواقع وتمايزها يعد جوهري لا عرضي، وهذا بدوره يبرز حقيقة لا مجال للشك فيها، وهي أنه من غير المعقول رد كل ما في الوجود إلى مبدأ مادي واحد لأن كل ما هو ظاهر للحس لا قيمة له ، إذا كنا نتحدث عن أزلية للموجودات، لأن الحقيقة تكمن خلف الأشياء . إذن القول بمبدأ مادي واحد للأشياء يفترض الفصل التام بين ماهو مادي وما هو عقلي، وهذا ينتفي معه بالتأكيد أي معنى للماهية، لأن القول بمبدأ مادي هذا يتحقق فقط في

الطبيعة المحسوسة ، ومن جانب آخر إن القول بمبدأ مادي هو أصل الأشياء كان المقدمة للقول بجواهر غير مادية لأن هذا المبدأ قد برز عبره ماهية الجوهر وحقيقته،وهذا التصور الجديد قاد إلى معرفة الشيء الذي هو المبدأ الأول لجميع الموجودات. لقد كانت فكرة المبدأ الأول عند فلاسفة الطبيعة الأوائل، بوصفه علة للأشياء، دافعاً قوياً على الفلاسفة اللاحقين عليهم لتصور فكرة جوهر بسيط خال من التركيب بوصفه الماهية إذ أصبح الجوهر في هذه المرحلة، ونعني بها عند سقراط وأفلاطون، يشير إلى ماهو كلي وعد هذا الكلي المفهوم الميتافيزيقي لأنه تجريد للجزئي، إنه مفهوم مجرد أو معقول، وليس فقط مادياً جزئياً محسوساً أو كلياً عقلياً لا يتحقق في الخارج كما نجده عند سقراط كلي عقلي غير متعين، بينما نجده عند أفلاطون ،الكلي، هو صورة عقلية موجودة بالفعل في عالم المعقول، ولكن مع أرسطو أخذ هذا المفهوم يتطور، فهو انتقد أفلاطون أولاً في مثاليته المفرطة، ليؤكد أن الجوهر الأول مركب من مبدأين هما: الهيولى والصورة الذي أطلق عليه الجوهر الجزئي المفرد.

إن أرسطو إذ يقلل من أهمية المبدأ الأول عند الطبيعيين الأوائل لأنه يرى "أن تركيب الأجسام الطبيعية من مادة واحدة معينة يبطل تمايزاً جوهرياً ويجعلها متمايزة فقط بالعرض من حيث الشكل والحجم، في حين أن الملاحظة تدل على أنها تتباين بالخصائص، وأن العقل يدل على أن الاختلاف في العرض لا يحدث اختلافاً في الجوهر"[1] إذن فالمبادئ الطبيعية إذا كانت غير معروفة لنا كان التغير كله عرضياً لا جوهرياً، لأن التغير الذي يحدث في عالم الكون والفساد هو تغيير جوهري.

على كل حال يمكن أن نقول أن محاولة فلاسفة الطبيعة لهذا الافتراض يمكن أن تعد بمثابة الإرهاصات الأولية لفكرة الجوهر، بوصفهم أول من قال بمبدأ أول هو أصل الأشياء جميعاً، مع الإشارة عندما نتحدث عن هذا المبدأ عند فلاسفة الطبيعة نكون بإزاء فكرة أولية بسيطة عن الجوهر والمادي تحديداً، لذلك اتسم تفكيرهم بأنه كان طبيعياً محسوساً وليس ميتافيزيقياً أو تجريدياً خالصاً.

1- أضداد الجواهر:

لعل هذه الصفة من الصفات المهمة لتبيان حقيقة الجوهر التي أجمع عليها كل الفلاسفة، ولكن الشيء اللافت في صفة الجوهر هذه أن أرسطو يجمع بين أن الجوهر لا ضد له وبين قبوله للمتضادات يقول: " فماذا يضاد الجوهر الأول كإنسان ما فإنه لا تضاد له، ولا للإنسان ، ولا للحيوان مضاد"[2] هذا الكلام عند أرسطو يتجه إلى تحديد الاختلاف المطلق بين الشيئين المتضادين ويشتركان في موضوع واحد لأن وجود الضد في هذه الحالة وفي الموضوع الواحد يعني *انتفاء* الأول وزواله، أما إذا كان التضاد لا يعني زوال الموضوع، أو المادة التي يكون بها الجوهر موجوداً، فالضد يكون هنا تعاقب الصورة على المادة الواحدة، بوصفها متغيرة من شيء إلى شيء كانتقال الماء من بارد إلى حار والعكس، فمادة الماء تبقى هي هي وإن تحولت إلى عنصر آخر كالتراب مثلاً أما الضد إذا تحول من صورة إلى أخرى فهذا يعني افتراض عدمه، أما ماهو موجود بذاته فهو ثابت لا يتغير، ولكن إذا افترضنا بأن مالا ضدله فلا عدم له لأكدنا مع أرسطو بعدم فناء الجواهر، ولكن ألا تعدم الجواهر بوصفها حادثة؟هذا ممكن لأن القول بحدوث الجوهر يعني القول بفنائه، إلا إذا نظرنا إليه من جهة خلوده، بذلك قد لا يكون له ضد ، ولكن كيف تكون الجواهر قابلة للمتضادات ؟ إنها عملية ذاتية يقوم بهاالجوهرذاته،وهذا يعنى تحوله من أبيض إلى أسود يقول أرسطو: "فأما الجوهر فيقال فيه أنه قابل للأضداد وعن طريق أنه نفسه قابل للأضداد، وذلك أنه يقبل المرض والصحة والبياض والسواد،

---

[1] – **يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مطبعة المحبة، التأليف والترجمة ، 1936، ص 173-174.**

[2] – **أرسطو، المنطق، المقولات، تحقيق :عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، بيروت،1980، ص 40 .**

وإنما يقال فيه أنه قابل للأضداد ومن طريق أنه نفسه يقبل كل واحد من هذه وما يجري مجراها، فيجب من ذلك أن تكون خاصية الجوهر أن الواحد منه بالعدد هو بعينه قابل للمتضادات بتغييره في نفسه "[1]. قلنا فيما سبق أن هناك عدد من الجواهر منها ماهو عقلي وهو الجوهر المنطقي والميتافيزيقي، ومنها ماهو مادي، وهي الجواهر المحسوسة، وهذه الجواهر، المحسوسة، طالما أنها غير مفارقة ، فمن الممكن أنهاهي الجواهر التي تقبل المتضادات لأن تحققها يتوقف على الجوهر الثابت ، إذن مما هو واضح أن هذه الصفة للجوهر،أي قبوله للمتضادات، تفترض تغيراً فيه، وهي إمكان انتقاله من حال إلى حال أخرى لأن الحقيقة المطلقة التي تقال على الجوهر تفرض دائماً أشياء يعرف بها لأنه إذا بطلت هذه الأشياء عن قبول الصورة، كان فساد الجوهر، ولكن لماذا يفترض أرسطو هذه الصفة للجوهر وهي قبوله الأضداد بينما أعراضه لا تقبل ضداً؟ نعتقد أن لأرسطو أهداف وجودية ومعرفيةً' وهي أنه يعد الجوهر الجزئي هو الحقيقي أي أنه هو الموضوع بينما الكلي هو المحمول فإذا فسد الجزئي فسد الكلي، أي أنه ربط العلاقة بين الجزئي والكلي، وعد الجزئي هو الأساس فيها ، كما أن للجانب الأنطولوجي أهمية كبرى في هذه العلاقة، وهذا يبرز في اعتقاد أرسطو،من أن انتقال الوجود من حال إلى أخرى، هي عملية ذاتية تحدث في الجوهر ذاته وهذا يضمن استمرار الموجودات من مقولة الجوهر ذاته لأنه لو كان للأعراض أضداد يعني ذلك فسادها لأن الجوهر هو الموجود حقيقة ومعنى الأشياء ووجودها متوقفان عليه ، إذن أرسطو يقول بقبول الجواهر للأضداد، إلا أنه يرفض القول بأن التغير شئ خارج عن ذات الجوهر.

2-الجوهر لايشتد ولا يضعف

عندما نقول أن الجوهر ثابت لا يتغير أي أنه لا يقل ولا يزيد فصورته ثابتة، وهذا يفضي إلى القول ان المجودات التي تقال عليه وترتبط به حالها من حاله، وكما أن الجوهر لا ضد له ترتبط بأن الجوهر لا يقوى ولا يضعف، فسقراط هو سقراط منذ طفولته إلى كهولته لأن ماهو "في جوهر جوهر ليس يقال أكثر ولا أقل مثال ذلك أن هذا الجوهر إن كان إنساناً فلن يكون إنساناً أكثر ولا أقل، ولا إذا قيس بنفسه، ولا إذا قيس بغيره، فإنه ليس أحد من الناس إنساناً بأكثر من إنسان غيره، كما أن الأبيض أبيض بأكثر مما غيره أبيض، والخير خيراً بأكثر مما غيره خير" [1]

فالإنسان من حيث جوهره كإنسان لا يشتد ولا يضعف لأن الإنسانية بوصفها جوهراً لا يحصل عليها شيء يزيد أو ينقص منها، حتى ولوقلنا أن هذا الجزء أشد جوهرية من ذاك الجزء وهذا لايؤثر على جوهر الإنسانية من حيث هي جوهر لأن الطبيعة الجوهرية تقتضي الثبات والدوام والكلي هوا لثابت (الإنسان) لأن الأعراض هي ماتخضع للزيادة والنقصان وهذا ماتفصح عنه فضائل الأفراد المتغيرة بين الصبى والكهولة، مثال ذلك،قد يكون شخصاأكثرشجاعة من غيره ، وإن كان أقل منه حسباً ونسباً، فهذه الأعراض قابلة للزيادة والنقصان وإذا نظرنا إلى المشكلة من جهة أخرى نرى أن صفة الأكثر والأقل، التي لا تقال على الجواهر، وذلك بحسب قياس إذا قيست الأجناس إلى الأنواع والأنواع إلى الأجناس والقياس هنا ممكن، بحسب الجزئي والكلي، بينما الجواهر يمتنع عليها هذا القياس لأن عالمها واحد ومن طبقة واحدة، حتى ولو قمنا بقسمة الجواهر إلى جوهر أول وجواهر ثوان فالأول يقال بالتفضيل أي أنه أفضل من جواهر الأجناس والأنواع ولكن قد نميز، بشدة الجوهرية، بين الأشخاص، الجواهر الجزئية، والثواني،الجواهر الكلية، أما داخل كل فئة من هذه الجواهر فلا مفاضلة ولا شدة ولا ضعف، ولكن كيف سيكون حال هذه الصفة، الأشتداد والضعف، إذا نفينا الضد عن الجوهر؟ إن الجواهر الأول وإن كانت أولى بالجوهرية من الجواهر الثواني، فلا يعني ذلك

[1] – م. س ، ص 43.

[1]– م. س، ص 41.

أنها أشد منها بالجوهرية، لأن الجوهرية قد تتحقق في الماهية بصورة أشد، والجواهر الأولى ترتبط وتتعلق بوجود الجوهرية أي أن الأشد والأضعف قد يكون في الأعراض أكثر مما يكون في الجواهر لأنها هي التي تقبل الأشدية ولأن حالها قد يزداد في التدرج من الأقل إلى الأكثر في الأشدية وهذا يبرز بصورة خاصة في ألانطولوجيا الأرسطية إذا سلمنا فعلاً أن الجواهر ثابتة لا تقبل الزيادة ولا النقصان أي الشدة والضعف لأن هذه الصفة تقع على الأعراض لأنها هي التي تتدرج في التناقص كلما ابتعدت في الوجود عن الجوهر لأن الاشتداد والنقص يلتقي مع انتفاء الضد. كما أن الجوهر لا يقع عليه الأضداد والنقص من جهة الحركة فكيف سنقول منه ماهو أشد وما هو أضعف؟ كما أن الطبيعة الجوهرية ذاتها غير قابلة للاشتداد لأنه لو كان من طبيعتها الاشتداد لكان هذا حصل دفعة واحدة ووصلت إلى أعلى هرم الاشتداد. ولكن إذا قلنا أن الجواهر قابلة للاشتداد لقبلت العكس أيضاً وهذا يؤكد جوهرية هذه الصفة للجوهر،إلا أنه من الممكن النظر لمشكلة الاشتداد والضعف في الجوهر في الماهية فمكونات الموجود تتألف من جنس وفصل وهذا ما تكون به الماهية موجوداً حقيقيا فالإنسان والحيوان منفصلان داخل الماهية الواحدة مثال ذلك الكائن أكان حيواناً أم إنساناً، أي ما مكونه نفس وجسم، فهو حساس ومتحرك أما الذي نفسه أقوى على التحريك تكون فيه قوة التحريك اكثر وأكمل أي أن الموجودات في الجنسين قد تكون متساوية في الجوهرية، ولا تتفاوت جوهريتهما بالشدة والضعف، ولكن هذا المعنى للطبيعة الجوهرية يقصد به نموذجين في الجنس مختلفين في الصفات الذاتية، لأنه كما قلنا الأن الحيوانية كجنس والنطق كفصل منفصلان داخل الماهية الواحدة .

3-الجوهر مقصود بالإشارة:

قلنا في الفقرة الماضية أن الجواهر تقبل المتضادات ،وهذا يرتبط بوصفه موجوداً يشار إليه ، أي أنه موجود يمكن إدراكه ولكن هذه صفة لا تقال على كل الجواهر ، بل هي لبعضها دون بعضها الآخر ، والأعراض لا تنطبق عليها هذه الصفة ، ذلك لان الأعراض إنما يتحدد معناها لأنها تقال على الجوهر ، أما الجواهر فطبيعتها متفردة ومتميزة في وجودها عن باقي الموجودات ، لهذا يمكن الإشارة إليها بوصفها متميزة في وجودها ، هذه الصفات هي التي تؤكد أن الجوهر موجود ويشار إليه. ويجب أن نلاحظ أن هناك نوعين للإشارة: إشارة حسية، وأخرى عقلية، أما الإشارة الحسية تشتمل على الجوهر الجزئي وهو الجوهر الأول والإشارة تكون إليه لأنه هو الموضوع وهو واحد بالعدد مثل قولنا سقراط فهذا هو "الجوهر الأول فبالحق الذي لامرية فيه أنها تدل على مقصود إليه بالإشارة، لأن ما يستدل عليه منها شخص وواحد بالعدد، وأما الجواهر الثواني فقد يوهم اشتباه شكل اللقب منها أنها تدل على مقصود إليه بالإشارة".[1] أما الأجناس والأنواع فهي جواهر كلية ليست واحدة بالعدد فهي لا يمكن أن تقبل الإشارة لأنها لا تشكل ذاتاً واحدة بذاتها ولأن "الإشارة إنما تتوجه إلى ذات، فأما الهيولى فليس يمكن الإشارة إليها إلا إذا قبلت الصورة، وحينئذٍ تكون ذاتاً مفردة" [2]إذن المركب الجزئي من الهيولى والصورة هو ما يقبل الإشارة لأنها مع بعضها تشكل ذاتاً واحدة، لأن الهيولى منفصلة بدون صورة لا يمكن أن نشير إليها فهي مجرد فكرة محضة لا محل لها والأفكار، حسب أرسطو، غير قابلة للإشارة ومن هنا يمكن القول : إن الإشارة المقصودة هي إشارة إلى أشياء حسية مدركة لأنها عند أرسطو مركبة من هيولى وصورة وهي لا تدرك إلا حسياً، أما الإشارة العقلية يجب أن تختص بموضوعات عقلية مجردة، ،ما دام موضوع الإشارة خارجياً وشيئاً مجرداً لأن الإشارة بدورها هي شكل من التصور أو التخيل لموجود ما، لذلك يبتعد الجوهر عن كونه موصوف بهذه الصفة، كما يرى أرسطو، ولكن من الممكن القول أن الإشارة صفة خاصة لبعض

[1] – أرسطو، المنطق، جـ1، مصدر سابق، ص 40 .

[2] – أرسطو، الطبيعة،السماع الطبيعي، ترجمة، اسحق بن حنين، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة 1984 ص 169.

الجواهر دون بعضها الآخر، ولكن إذا كانت هذه الآراء تؤكد أن الجواهر هي فقط الذوات والأشياء التي تقصد بالإشارة، وأن الجواهر الحسية هي وحدها المقصودة بالإشارة الحسية دون الجواهر العقلية، إلا أن ابن باجة يخالف هذا الرأي يقول : " إن ما ينسب إلى الجسم لا يخلو إما أن يكون جوهراً لذلك الجسم أو عرضاً فيه وظاهر أن ما كان منه عرضاً في الجسم أنه لا قوام له إلا بذلك الجسم، وذلك الجسم يجري مجرى المادة لذلك العرض. وبذلك يصير العرض شخصاً ما يشار إليه. وقد قيل في هذا في غير موضع . فأما ما هو جوهر لذلك الجسم المشار إليه وبه قوام بذلك الجسم، فهو صورة أو مادة، كما يبين في غير هذا الموضوع "[3] يبدو واضحا أن ابن باجة يعد الأعراض أشخاصاً يمكن أن يشار إليها، ولكن في فهم آخر للنص نرى عدم صواب رأي ابن باجة في هذا لأن الأعراض لا يمكن أن تكون أشخاصاً لأنها حتى تتقوم، كما يعتقد أرسطو، تحتاج إلى أشخاص جواهر متقومة بذاتها تتقوم بها الأشياء لأن الأشياء لا وجود لها وجوداً عينياً كما هو الحال في الجوهر بحيث يُشار إليه من الجهة التي كان بها جوهراً، فهو الذات، وهو الحقيقة بعينها، ولكن ثمة تساؤل يتبادر إلى الذهن، وهو هل من أسباب كان من أجلها الجوهر، عند أرسطو، مقصوداً بالإشارة ؟ والأهم من هذا وجدنا أن صفة الجوهر المشار إليه حسياً تفوق في قيمتها تلك الإشارة العقلية ولعل السبب يكمن أن أرسطو جعل الماهية في الأعراض، أي بعد هذا يمكن أن نشير إلى الجوهر بأنه هو هذا الذي هنا أو هو ذاك الذي هناك، إذن فالإشارة تحددها الأعراض والأعراض لا وجود لها بذاتها على سبيل الاستقلال، إذن يبدو أن الجواهر الأولى ليس لها وجود مستقل، أي أن لها وجوداً عينياً متشخصاً نشير إليه بأنه هذاهو الجوهر، بمعنى آخر لو جردنا هذا الجوهر من صفاته، أي من جميع أعراضه التي تفصح عنه كجوهر، كإنسان مثلا، فماذا يبقى منه بحيث يمكن أن نشير إليه إشارة حسية ؟ ولكن قول ارسطو أن الجوهر يشار إليه من أعراضه فهذا لا يعني جعل الجوهر شيئاً يوجد بتبعية غيره، أي معتمداً على غيره،لأن تعينه كجوهر ويشار إليه مرتبط بأعراضه فقط ،وهذا لا يتعارض مع كونه شيئاً قائماً بذاته، ويجعله شيئاً تابعاً ، أي من الممكن أن نقول بأن ثمة علاقة متبادلة وأساسية، قد تصل إلى حد التلازم بين الجوهر والأعراض. ولكن ثمة افتراض عن سبب تفرد الجواهر بذاتها في الإشارة الحسية، هذا الافتراض يتصل بتعريف الجوهر بأنه الماهية التي إن وجدت في الأعيان كانت لافي موضوع ولكن هذا التعريف بدوره يؤدي إلى إلغاء صفة قبول الإشارة الحسية عن الجواهر، إذ كيف يكون شيء موجود لا في موضوع ومع ذلك يمكن أن يقصد بالإشارة الحسية ؟. هذا سنناقشه في تعدد معاني الجوهر في مستويات فلسفة أرسطو المختلفة.

يقدم أرسطو أنموذجاً متقدماً عن سابقيه فيما يتعلق بفلسفة الجوهر وعلى الرغم من ذلك ظل هذا المفهوم الأكثر إشكالاً في فلسفته حيث عده علة الوجود أو الأساس له فهو لا علة له، وهذا ينطوي على تناقض شديد وما يثير إشكالاً أكثر هو ان أرسطو يعتبر الجوهر هو الحامل الوحيد للوجود على الرغم من وجود تمايز بين موضوعات الوجود والمشكلة الأكبر أن فهمنا للوجود يتوقف على فهمنا للجوهر ومشكلات الوجود ليس لها من حقيقة دون تدخل الجوهر فيها إن العديد من المشكلات في فلسفة أرسطو قد أفصحت عن جواهر متعددة عدت الجزء الأساس في فلسفته كجوهر المقولات العشر في المنطق والجوهر الميتافيزيقي والجواهر المحسوسة. في هذا الجانب من بحثنا سنحاول أن نبرز أهمية الجوهر بالنسبة إلى كل جزء من فلسفته كما سنحاول أن نبين علاقة الجواهر ببعضها لمعرفة الجوهر الأساسي عنده.

---

[3] – ابن باجة، الرسائل الإلهية، تحقيق: ماجد فخري، دار النهار، 1991، ط2، ص 147.

أولاً : الجوهر في الجانب الميتافيزيقي:

في هذا المكان سنحاول دراسة الجوهر في الجانب الميتافيزيقي معانيه وأنواعه وماهي علاقته بباقي الجواهر الأخرى ؟ هل جنسها واحد أو أن أجناسها مختلفة ؟ ماهي الأشياء التي تقال على الجوهر و ذلك لمعرفة الفرق بين الجوهر والماهية والصورة ؟.

في البداية نرى أنه من الضروري أن نبين أن كلمة ميتافيزيقيا، التي تعني ما بعد الطبيعة، هذا المصطلح لم يعرفه أرسطو فهو أطلق على هذا النوع من المعرفة الفلسفة الأولى ويعني " بذلك أن هذا النوع من العلم هو المبادئ الأساسية العامة للعالم، وان مبادئ كل فرع من فروع العلم ثانوية بالنسبة لها لأن مبادئ كل فرع خاصة بذلك الفرع من العلوم وأما مبادئ الفلسفة الأولى فأساسية لكل علم " [1] مما يظهر أن موضوع الميتافيزيقيا هي دراسة مبادئ وعلل الوجود أي الموجود من حيث هو موجود وهو الجوهر، في هذا الجانب يهتم أرسطو بصورة أساسية في الكشف عن علل الوجود ، ولعل أرسطو بتناوله المشكلات المتعلقة بالميتافيزيقيا هو عدم المزج والتداخل بين عموم المشكلات، لينتهي بعد ذلك لتحديد المعاني المختلفة للجواهر،وكيف تقال الأعراض عليها كالمقولات العشر وغيرها من الأعراض كالأسود، والأبيض، والحار والبارد، لأن كل واحد من هذه تقال على وجه ما ، والذي يجعل من هذه الأشياء ذات طبيعة وعلى نحو ما من الوجود بوصفها مشكلات ميتافيزيقية . إذن يتحدد خصائص ومعاني الوجود بوصفها معاني متعددة لأنها تقال على الجوهر الموجود حقيقة فللجواهر وللبشر وللخيل، وما شابه، لكل منها نحو معين من الوجود فهي جميعاً أشياء فالموجود " الأول الذي من النوع الأول محل وموضوع للذي من النوع الثاني، وليس هو في محل أو موضوع، وظاهر أن المتقوم في ذاته المقوم لغيره أشرف من هذا المتقوم به "[2] ، إن الجوهر متقدم على باقي الموجودات الأخرى، ولكن كلمة يوجد لها أكثر من معنى لأن الموجودات متمايزة في وظائفها وبنيتها وجهتها أيضا، لأنه في قولنا هذه الأنحاء للوجود نفترض أوجه كثيرة للحمل، فللجوهر معنى وكذلك للبشر، والفرس معاني وللصفات مثل الأبيض والمر، إذن يبدو أنه من الصعب علينا ضبط كلمة يوجد في شيء محدد وصفة محددة بشكل دقيق، ولكن ما يعنينا هنا أن أرسطو يعد المتقوم بذاته جوهراً والمتقوم بغيره عرض أو كل ما يحدث في الوجود مرده إلى الجواهر فهي التي تجعل منها ما يظهر به، كما يرى أرسطو.

إذن من الممكن القول بأن الجوهر يعد شرطاً لوجود أشياء ندركها بوصفها أشياء معقولة دائمة في معقوليتها غير فاسدة وبوجود هذه الأشياء يمكن أن نقول بجواهر دائمة لأنه " لو كانت الجواهر كلها تقبل الفساد، والجوهر قبل جميع الأشياء الموجود لزم أن تكون جميع الأشياء تقبل الفساد. لكن لابد أن يكون للموجودات جوهر دائم الوجود، عنه وجودها"[3]، ومتى عرفنا الشيء الذي له ماهية فقد عرفنا علة جميع الموجودات.

في المقالة السابعة من الميتافيزيقيا، وقبل أن يبحث أرسطو حقيقة الجوهر يحدد هوية الموجودات التي تقال عليه أكانت كمية أو كيفية أو ما يقال عليه من المقولات ، لأن الجوهر" أحق من المقولات باسم الموجود أما التسع الباقية فلا تسمى موجودات إلا بالتبعية لأنها حالات للجوهر، وهو سابق عليها فإنها تتقوم به وهو متقوم بذاته"[4] أي الجوهر بمقولاته يعني وجوده في الآخر، والماهية تقال من شيئين أولاً اسم الموجود واسم الهوية وهي أشياء لا توجد

---

[1] – أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط9، د.ت، ص 179.

[2] – يوسف كرم، العقل والوجود، دار المعارف، مصر، 1964، ص 159.

[3] –عبد الرحمن بدوي ، أرسطو عند العرب ، مكتبة النهضة المصرية ، ج1 ، 1947 ، ص13.

[4] – يونس كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص 226.

بذاتها لكنها تدل على الموجود بذاته وهذا الموجود "إنما يدل أولاً وبإطلاق وتقديم على مقولة الجوهر وإنه يدل بتقييد وتأخير على مقولة مقولة من مقولات الأعراض التي إنما يقال فيها إنها موجودة من أجل كونها أعراضاً للموجود بذاته وهو الجوهر"[1]. فالهوية التي تدل على نوع من أنواع الوجود والمقولات التي هي أجناس الموجود كلها تشير إلى ماهو أي ماهو الجوهر المشار إليه القائم بذاته. ثم بعد ذلك ينتقل أرسطو لتقديم البراهين على حقيقة الجوهر بوصفه الموجود القائم بذاته مستخدما المنهج الجدلي لأن من الجواهر لايمكن أن نقدم عليها براهين مادية، والسؤال عن ماهو الشيء وماهو كيفه نستدل عليه من علته وأعراضه لأن كيف الشيء هو كون الشيء لا فساداً وعند سؤالنا عن ماهو الشيء نشير بذلك إلى الجوهر بحقيقته. لأن الموجود حقيقة هو "أحق باسم الموجود أنه أن سئل بسائر حروف الاستفهام عن شخص الجوهر لم يجب فيه بشيء يعرف ماهيته مثال ذلك إذا سئلنا كيف هذا الشيء المشار إليه أو أي شيء هو أجبنا أنه موجود صالحا أو طالحا "[2] إن ماهو يجاب عليه بالجوهر المشار إليه لا بمحولاته، أما محمولاته التي تقبل شخص الجوهر أحق باسم الموجود من تلك التي لا تقبل ماهية الجوهر، أو صورته، ليس فقط لأنها لا تعرف ماهيته،بل لأنه يجب أن يشار إليه بوصفه ذاتاً مفردة موجودة هناك لأن الإشارة إليه حسية وهي نسبية وليست كلية، ولكن على الرغم من ذلك لايعد الجزئي جزئياً مفرداً نتوجه إليه فقط بالإشارة بل لأن الكلي تجريد لمجموع أجزاءه فعندما نقول مثلاً سقراط ويشار إليه بوصفه فرداً كذلك الأمر بالنسبة إلى زيد أو عمر لأنهما جميعاً محمولات على إنسان وهنا لابد من طرح السؤال الآتي، وهو لماذا عدّ أرسطو الإشارة إلى ماهو حسي وليس إلى ماهو عقلي؟ بينما نجدها عند غيره من الفلاسفة، كابن سينا مثلاً، إشارة ذهنية لأن وجهة النظر الأرسطية ذات طابع أزلي باعتبارها قولا غير قابل للتجاوز على مستوى الجوهر.

إذن إن اسم الموجود الذي هو أعراض هو ماهيات يعرف بها الموجود القائم بذاته وهو الجوهر، بعد ذلك يبحث أرسطو عن أنواع الجواهر وأحوالها وهل هناك جواهر غير المحسوسة؟ يقول أرسطو إن الجواهر تقال على أربعة أشياء الإنية والكلي والجنس، والموضوع، والموضوع هو محل لكل الجواهر، وهو لا يوجد في شيء ، وهذه الأشياء التي ينحصر فيها معاني الجوهر هي ماهيات له.[3]

إن أرسطو يؤكد حمل هذه الأعراض كلها على الجوهر، بعد ذلك يذهب إلى تحديد طبيعة الجوهر وبأي معنى تقال عليه تلك الأشياء ؟ إن الإجابة ، عند أرسطو، تتحدد ، من الهيولى والصورة ، أو المركب منهما والمشكلة برمتها ينظر إليها من علاقة الهيولى بالصورة لأنه لا يمكن أن تكون الصورة بدون الهيولى ، وإن كانت موجودة بالفعل ، لأنها لو كانت كذلك لتقدمت على الجوهر الذي هو سببها ولأن مبدأ الصورة لا تركيب فيه ، وقبل أن نبحث في طبيعة الهيولى والصورة والعلاقة بينهما، سنحاول أن نوضح كيف يتحقق الجوهر في الوجود.

في المقالة الثامنة يبحث أرسطو كيفية تحقق الجوهر وهو الجوهر المسمى هنا صورة ، يتحدد ذلك ، حسب رأيه ، من عناصر الأشياء الموجودة في الطبيعة ، وهي العناصر المادية التي من خلالها تتم عملية الكون والفساد، ولمعرفة أي من هذه العناصر تقبل الصورة " الموجودة في الشيء وهي التي ينحل إليها المركب ولاختلاف هذه المعاني الثلاثة في الحد أتى بهذه الألفاظ الثلاثة لا على جهة الترادف بل على جهة الإيضاح للمعاني المطلوبة من أمر مبادئ

---

[1] – ابن رشد، تفسير ما قبل الطبيعة، جـ 2، مصدر سابق، ص 747.

[2] – م.س، ص 748.

[3] – م . س، ص 767 .

الجوهر" [1] ولكن قبل أن نبحث في جوهرية الهيولى والصورة ، والعلاقة بينهما ، نطرح تساؤلا ًمهما عند أرسطو، وهو لماذا يقدم الجنس على النوع ، على مستوى الميتافيزيقا،في الجوهرية لأن الجوهر عنده "يقال في المشهور على أربعة معان على ما يدل عليه الحد وهو الصورة وعلى الموضوع للصورة وعلى الجنس أكثر من النوع وعلى الكلي أكثر من الجزئي"[2] فما هو جوهري في الجنس هو الصورة أي أن الجنس المسمى هنا حداً هو مجموعة أجزاء والجزء الذي هو جوهر الهيولى الموجودة بالقوة صورة . لذلك عدَّ أرسطو الهيولى مشكلة ميتافيزيقية ، وعلى الرغم من ذلك فهو يعالجها أيضا في القسم الطبيعي من فلسفته لأنه يربط ماهو طبيعي بالهيولى ولأن الطبيعة عنده "تقال على الهيولى والهيولى على نوعين أحدهما الهيولى الأولى المشتركة للجميع، والثاني الهيولى الخاصة بموجود موجود إذ أن الهيولى الأولى القريبة التي يقال فيها أنها أولى بالإضافة إلى جنس ما أو نوع ما ومثال الهيولى التي هي أولى بالحقيقة للأشياء التي تصنع من النحاس هو الماء إن كان الماء هو الهيولى الأولى"[3] والطبيعة تختص بالجوهر وهو الصورة فالهيولى هو هذا الشيء الذي يفتقر إلى صورة بما أنها غير منتظمة، لذلك فهي الأدنى لأن الصورة هي تنظيم لها لذلك فهي متقدمة عليها في الجوهرية، ولكن هذه التفرقة بين الهيولى والصورة نكاد لا نجدها في فلسفة أرسطو إذ لا وجود للهيولى بدون صورة ولا معنى للصورة بدون هيولى، إن الفارق بينهما هو في الذهن فقط، أي أننا لا نستطيع أن ندرك شيء، ثم ندرك أجزاءه . إن أرسطو يقول بنوعين للهيولى، الهيولى الأولى المستعدة لاستقبال الصورة بوصفها ماهو بالقوة قابلاً لأن يكون ماهو بالفعل أما المعنى الثاني للهيولى وهو الأبعد مرتبة عن الصورة فهي أشبه بالهيولى الهلامية "المطلقة التي لا توجد بطبيعة الحال في العالم اللاعضوي تسود الهيولى لدرجة أن تلتهم الصورة ونحن نتوقع أن نرى الكلي وهو يعرض نفسه فيها بطريقة غامضة"[4] إذن الهيولى الهلامية تفتقر إلى العامل الذاتي الداخلي الذي يجعل منها موجوداً بالفعل فهي محتاجة إلى قوة خارجة عنها تدفعها إلى تحقيق ذاتها، بين الهيولى الأولى والثانية فرق لأن ما فعله ذاتي أرقى في مرتبة الوجود، وما فعله خارجي أدنى في المرتبة ،إن هذه الهيولى،الثانية، تغدو حركة إلى كمالها أنها تكشف عن ذاتها من مبدأها الخارجي لان ماهو جوهري للهيولى يتحقق بوصفه صورة لأنها حركة باستمرار من الأدنى إلى الأعلى،أما الهيولى الأولى القابلة للصورة لان طبيعتها كذلك، ولأن مبدأها الطبيعي كامن فيها فصورتها تكشف عن نشاطها الجوهري، وإن كمالها هو انبعاث من داخلها وتدفق باتجاه غايتها.

ثانياً : الجوهر في فلسفة الطبيعة :

أتضح ، فيما سبق،أن الجوهر الميتافيزيقي هو الموجود الذي يصعب علينا إدراكه، بحواسنا، بوصفه شيئاً متخفياً خلف الظواهر المحسوسة لأنه الموجود القائم بذاته دائم الوجود لا يتغير، وكان أرسطو قد قال بوجود جواهر أخرى تختلف عن هذا الجوهر في معانيها وحقيقتها فهل من الممكن القول: أن هذه الجواهر تطابق ذلك الجوهر الموجودة لا في موضوع؟

إن مستوى تحقق الجواهر في الوجود يجعلنا نميز وبشكل دقيق بين الجوهر البسيط والجواهر المركبة ، وهذا يبدو لنا إذا نظرنا إلى موضوعات علم الطبيعة وأمورها مثل ، الأجسام الطبيعية، والزمان والمكان، والحركة. لكن لما كانت الحركات متعددة كانت جميعها ترتبط بحركة أولى هي " ضرورة أن تكون حركة دائمة فقد يجب ضرورة أن تكون

---

[1] – م . س ، ص 1024.

[2]– م . س ، ص 1026.

[3] – ابن رشد، الميتافيزيقيا، مصدر سابق، ص 513– 514.

[4] – ولترستيس ، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة، القاهرة، 1984، ص242.

نقلة دائمة أول الحركات"[1] إن هذه الحركة الأولى تتبدى كل الحركات لأنها حركة أبدية لا تنتهي وبهذه الحركة ترتبط حركة لها بداية ونهاية وهذه البداية والنهاية لجسم يتحرك أو هو الجوهر الجسمي المتحرك. كما نلاحظ تنوع واختلاف تلك الحركات وهذه "الحركات التي تتلوه: النمو والاستحالة والاضمحلال والفساد. وذلك لأنها كلها من بعد التكون، فلذلك ليس التكون أقدم من النقلة، فليس ولا واحد من سائر أصناف التغيير أيضاً أقدم منها" [2] إن عملية حدوث الكون من ظهور إلى كمون ومن كمون إلى ظهور،ترتبط بنظرية الحركة عند أرسطو لأنها تؤدي إلى القول بعدم ثبات الجواهر، ونقصد هنا الجواهر المحسوسة، التي هي موضوع مناسب للتغير والتحول، إذن لابد من القول بفروق أساسية بين الجواهر المجردة والجواهر المحسوسة لأن الجواهر المادية المتغيرة يرتبط بها تغير في العالم المحسوس ولكن ألا يتعارض هذا واعتقاد أرسطو بالعلم اليقيني وثباته ؟ ، حتى لو ارتبط العلم عنده بالجوهر الكلي الذي يتصف بالثبات ولكن هذا ليس موضوع بحثنا الآن . إن القول بتغيير في الجوهر المادي مبدأ الصورة في الطبيعة ينطوي ،برأي، على تناقض شديد والتناقض يفصح عنه السؤال التالي وهو عملية التغير في الجوهر المادي كيف تحدث ومن يحدثها؟ إذا قلنا أنها ذاتية تحدث من ذات الجوهر المادي قلنا أن هذه الذاتية تفترض استقلال الجوهر المادي عن باقي الجواهر الأخرى أما إذا قلنا أنها تحدث بفعل الجوهر العقلي، المبدأ الأول لجميع الموجودات، قلنا أن ما يغير يفقد خاصية الثبات لأنه هو ذاته قد يخضع للتغير، ويبدو أن أرسطو كاد أن يجعل من التغير حقيقة جميع الجواهر إلا أن هذا كان سيوقعه بعدم إقراره ثبات المعرفة والعلم اليقيني، إن هذه القضية تجعلنا نلاحظ أن فكرة الجوهر عند أرسطو قد تأرجحت بين الثابت والمتحرك، لعلنا قد نوهنا إلى معنى الجوهر العقلي والجوهر المحسوس والفرق بينهما، وهذا الفرق سننطلق منه للبحث في معنى الجوهر الطبيعي عند أرسطو أي ما يتصل بعلم الطبيعة عنده، أي في الجواهر من جهة كونها جواهر مادية محسوسة.

هناك علاقة تفصح عن ذاتها في عالم الكون والفساد عند أرسطو وهي المتغيرات الحاصلة فيها التي نستدل عليها من فكرة الجوهر المادي بوصفه الجوهر المتعين إن عملية تركيب العناصر من فساد إلى كون وبالعكس يعبر عنها بوصفها تغير في هذا الجوهر لأنها عملية انتقال ذاتية تحدث في الجوهر من شيء إلى ضده، لأن الجوهر كما قلنا يقبل المتضادات من ذاته أما بوصفه قائما بذاته فلا ضد له لأن هذا يفترض فناءه وهذا يتنافى أيضاً مع صفة أساسية من صفات الجوهر وهي نفي الضد عنه، وهذا كنا قد أكدناه في فقرات سابقة. لقد توضح إذن أن هناك جوهراً متغيراً طالما أن هناك أشياء متغيرة ترتبط به وهذا برهان على خضوع الجوهر المادي للتغير، ولكن يجب أن نعلم أن الكون والفساد عند أرسطو يعني الظهور بعد الكمون والكمون بعد الظهور يقول: "أفلا تصير أبدية التعاقب ضرورية بهذا السبب وحده أن فساد شيء هو كمون لشيء آخر وأن العكس بالعكس كون هذا موت ذلك أو فساده "[3] وهذه العملية لا تعني خلق من العدم المحض لأن أرسطو لا يعترف بالانتهاء الكلي، أو الخلق من العدم المحض، إن الكون والفساد هي مظهر من مظاهر التغير في الجوهر، إن التغير هو شيء وأصبح شيئاً آخر، لأن ما يقال في موضوع هو شخص العرض، أما ماهو متغير ومتكون بإطلاق هو شخص الجوهر، الأول يفتقر إلى موضوع وهذا هو حال الهيولى ، أما شخص الجوهر فهو يفتقر إلى موضوع لأنه لا يمكن القول بالخلق عن العدم، إن المتغير هو المركب من مادة وصورة وهذا التغير لا يحصل إلا في الجواهر المادية .

---

[1]- أرسطو، الطبيعة، مصدر سابق، ص 878، 879.

[2]- م.س، ص 882.

[3]- أرسطو، الكون والفساد، ترجمة: أحمد لطفي السيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1932، ص 133.

إن هذا التغير هو ارتقاء للصورة التي هي صورة جسمية بالهيولى، مما يظهر أن الجوهر المعني هنا يفتقر إلى الموضوع، وهو الجوهر المحسوس وهو يختلف عن الجوهر المجرد لأنه الموجود لا في موضوع إذن مفهوم الجوهر ليس عاماً مطلقاً لكل أنواع الجواهر بل يختلف معناه ذلك حسب طبيعة كل جوهر ودوره في الوجود والمعرفة ومن هذا التفريق بين الجوهر الثابت، وغير الثابت يمكن أن نقول : إذا كان الجوهر غير ثابت كان الشيء الذي يتحدد منه غير ثابت. إن التغيير الحاصل في الجوهر المادي يوصلنا إلى حقيقة تؤكد الجوهر المتغير وما يتغير إليه هذه العملية لا تحدث دفعة واحدة بل تتم عبر مراحل أي عبر متوسطات والمتوسط عند أرسطو ما إليه "يتغير المتغير أولاً وبالذات أعني إذا تغير من الضد إلى الضد... والسبب في ذلك أن المتغير هو من الضد إلى الضد والضدان في جنس واحد والمتوسطات في الجنس الذي فيه الضدان هو الشيء الذي أولاً يقع إليه المتغير وأما المتغير من جنس إلى جنس أعني الذي ليس واحد فلا يكون إلا بالعرض"[1]. يوضح أرسطو ذلك الشيء المتوسط الذي تتم عبره عملية الانتقال بين الضدين على النحو الآتي. إن انتقال اللون من الأبيض إلى الأسود يحتاج أولاً إلى لون بين اللونين وهو اللون الأحمر والأغبر قبل أن نصل إلى الأسود وهذا يتم عن طريق الحركة التي تعبر عن الانتقال من القوة إلى الفعل وفق تسلسل. ونحن عندما نقول أن هناك عملية تغير تحصل في الجوهر المحسوس لأن الكون والفساد يتواردان على الجوهر، لأن الجوهر بما هو جوهر لا يحصل عليه تغير تدريجي لأن تغيره يحصل دفعة واحدة وفي لحظة واحدة الذي هو وجود بعد لا وجود أو لا وجود بعد وجود فمهما كانت "الجواهر التي يعتبر فيها الكون والفساد سواء النار أو الأرض أو أي عنصر آخر مشابه فإن الكون والفساد لا يزالان أحدهما للوجود والآخر للاوجود"[2] إن الوسط يوجد بين هذين الضدين،الكون والفساد، لأنه لا وجود لوسط في الجواهر، العقلية ، لأنها لا تقبل الزيادة أو النقصان فهو موجود ثابت لا يشتد ولا يضعف ولكن حركة الاستحالة*، تسمح بوجود حركة في الجوهر بين الأبيض والأسود لأن استحالة الماء إلى هواء لا تتم دفعة واحدة إنما تبدأ بعملية التسخين ثم التبخر ومن الواضح أن هذه الحركة تشتمل على الجوهر وليس على تعقب الأشياء وحدها. إن ما نقوله هنا في عملية التغيير التي تحدث في الأشياء تعنينا لمعرفة إمكان حدوث تغيرات في الجواهر، يعني إن التغير الذي يخضع له الجوهر المادي هو عبارة عن الكون والفساد لهذا الذي يتكون ويفسد وهو الجوهر المحسوس وليس مادته منفصلة أو صورته منفصلة، لأن الصورة لا تتكون ولا المادة كذلك، ولكن الذي يتكون المجموع منهما فالصورة لو تكونت أو فسدت لكانت مؤلفة من مادة وصورة لأن المتغير يكون عبر شيء وإلى شيء وهذا ينطبق على جوهر الهيولى لأنها لو كانت كائنة وفاسدة لكانت خضعت للمركب من صورة وهيولى ولوكان كذلك لم يعد بالإمكان القول بوجود أنواع لا نهاية لها، ولذلك كانت الصورة والهيولى عند أرسطو جواهر لا تخضع للكون والفساد، أي لا يحدث هذا التغير لكل عنصر على حده، بل إن عملية التغير تحدث لاجتماعها في الجوهر المحسوس، يبدو أن هدف أرسطو من وراء ذلك هو تأكيده بعدم حصول تغير في جوهر المادة أو جوهر الصورة لاعتبارهما قديمين ، أزليين، ثابتين، وهذا لكي يعزز،أيضا، فكرته في دوام الجواهر. ولكن مع ذلك قد لا نتمسك بفكرة أرسطو بمفهوم التغيير الذي تخضع له الجواهر المادية لأنه ليس من الضرورة القول بأن التغير يعني الانتقال من الشيء إلى ضده حسب عملية ذاتية يقوم بها الجوهر ، ولكن من الممكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول بأن ماهو مركب من الاثنين نفسه قد يخضع للتغير، لأن المادة والصورة قد يخضعان للتغيير من خلال الاستحالة، وعلى الرغم من أن القول بتغير في المادة يخالف ما ذهب إليه الفلاسفة اليونانيين، طالما أن المادة وحسب علوم الطبيعة زمانية

---

[1]– ابن رشد ، تفسير ما بعد الطبيعة ، مصدر سابق، ص1532.

[2] – ارسطو ، الكون والفساد ، مصدر سابق ، ص135.

ومكانية مؤلفة من أجزاء ترتبط ببعضها، أما العلاقة بين تلك الأجزاء قد لا تكون من طبيعة المادة ذاتها وهذا ما يسمح بالقول بتغير فيها، ومن جهة أخرى فالفيزياء الحديثة أكدت أن المادة في حركة مستمرة، حتى ما يظهر منها أنه ثابت فيبدو انه في حركة دائمة قد لا تستقر في مكان معين وحركتها هذه تفرض دائماً علاقات جديدة، فالمادة إذن في حركة دائمة وقد تستحيل إلى أشياء أخرى، ومن هذه الحركة والتغير تتكون الأجسام، وما يتركب من الأجسام قد يختلف بناءه ووظيفته في وقت من الأوقات.

ثالثاً: الجوهر في المنطق:

قلنا أن الجوهر يتميز عن باقي الموجودات وهو متقدم عليها لأنه علة ذاته ولا يوجد في موضوع لأنه يوجد كموضوع وليس كمحمول كما أن الأشياء كلها تقال عليه أو تتجلى وتظهر من خلاله فالجوهر موصوف أنه على درجة متميزة من الوجود فهو ثابت لا يتغير وهو أولي في الوجود والأولية ليس المقصود فيها الجوهر من حيث مرتبته فقط بل لأنه الجوهر المتعين المفرد المتحقق في الخارج .

في قسم المنطق جزء المقولات يميز أرسطو بين جوهر أول وجواهر ثوان فأما "الجوهر الموصوف بأنه أولي بالتحقيق والتقديم والتفضيل فهو الذي لا يقال على موضوع ما، ولا هو في موضوع ما. ومثال ذلك: إنسان ما أو فرس ما، فأما الموصوفة إنها جواهر ثوان فهي الأنواع التي فيها توجد الجواهر الموصوفة بأنها أول"[1] الجوهر الأول لا يقال على موضوع ما، لكنه موصوف بأنه على درجة من التقديم والتفضيل، أما الجواهر الثواني فهي الأنواع والأجناس، هذه الجواهر موصوفة بأنها في موضوع ما، مثال ذلك الإنسان هو نوع في جنس.[2]

يعالج أرسطو، كما هو واضح، في المقولات ، الجوهر الأول والجواهر الثواني لينتهي إلى نتيجة وهي أنه لا يمكن الخلط بين الجوهر من حيث أنه الأول في إطار الموجودات والكليات في إنها جواهر ثانية، وهكذا يباين الجوهر الأول الكليات في أنه الموجود المفرد القائم بذاته ، أما الكلي فهو معنى تشترك به عدة أشياء، كالبياض مثلاً، وهذه تقال على موضوع والموضوع لا يمكن أن يكون جوهراً ولكن من الممكن القول أن هناك تشابه بين الجوهر والماهية والموضوع ، إلا أن أرسطو فصل بينهما لأن الموضوع لا يمكن أن يكون جوهراً لأنه في هذه الحالة يصعب علينا التمييز بين المادة والجوهر كما أنه يميز بين الجوهر والصورة فهو يرى أن الصورة لا يمكن أن تكون جوهراً لأن الصورة متقدمة من الناحية المنطقية على المادة، أما الجوهر فهو الموجود بنفسه. ولكن يجب أن نلاحظ أن فكرة الجوهر في معناه المنطقي ، تعبر عن شيء موجود ، أي فكرة لها مدلولات خارجية و تعيينات واقعية ، لذلك عدّ الجوهر في هذا المستوى ،المنطقي ، تصوراً واقعياً للموجود بما هو موجود ، وهذا يؤكد العلاقة ، والتلازم بين الجانبين المنطقي ،والميتافيزيقي لفكرة الجوهر ، يبدو أنه من غير الممكن أن نفرق عند أرسطو بين الميتافيزيقي الخالص، أو المنطقي الخالص ، لأن المادة تختلط بالصورة ، والحسي بالعقلي .

---

[1] – أرسطو، المنطق، جـ1، مصدر سابق، ص 36.

[2] – يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص 153.

الخاتمة:

مما ورد في بحثنا يمكننا أن نستنتج الآتي:

إن الفلسفة ما قبل سقراط، التي بحثت عن مبدأ للأشياء، قد بحثت في الأصل الذي ترتد إليه جميع العناصر دون أن تبحث في الأشياء ذاتها بوصفها صادرة عن الأصل الذي تكون عنه الأشياء، فكان بحثهم في الحركة والتغير، وهكذا فإن فلاسفة الطبيعة الأوائل لم يجدوا في العناصر المتغيرة وحدة حقيقية تكمن خلف هذا التغير و ترتد إليها جميع الأشياء، ولكن يمكننا القول أنه في الفلسفة الطبيعية وجدنا أننا كنا إزاء فكرة مادية محضة عن الجوهر وبالتحديد عن الجوهر المادي فقط، وقد أشار إلى ذلك أرسطو ، فهو قد وجد في تلك العناصر التي قالوا بها جوهر وعلة، لذلك لم تكن فكرة الجوهر البسيطة، غير المركب واضحة في مذاهبهم، وهذا يبين مدى استفادة أرسطو من فكرة الطبيعيين الأوائل إذ أنهم قد نبهوا إلى فكرة العلل والمبادئ، ومع أفلاطون أصبح لفكرة الجوهر معنى كلياً بوصفه كليات متعينة، هي مثل عقلية موجودة بالفعل في عالم المثل، وهي جواهر ثابتة غير متغيرة أزلية أبدية.

ومع أرسطو وجدنا أنه قال بعدد من الجواهر، ولعل المشكلة الكبيرة التي واجهها أرسطو هي القول بتعدد الجواهر واختلاف معانيها، وكنا قد بينا أن هناك جواهر ثابتة وأخرى متغيرة ترتبط بالثابتة وهذا بدوره افترض مشكلة في فلسفة أرسطو وهو تبرير العلاقة بين ماهو متحرك يرتبط بمحركات هي ذاتها غير متحركة.

لقد وقع أرسطو في ثنائية المادي والروحي لأنه لم يستطع أن يقول : إن الصورة هي الجوهر، ولو كان قرر ذلك لكان وقع في مشكلة المشاركة التي وقع بها أفلاطون ومن جهة ثانية لم يستطع أن يقول من الناحية المنطقية بأن الجوهر هو المادة، لذلك اتجه إلى حل وهو القول بوحدة الصورة والمادة، وهو الجوهر الجزئي الذي عده الأول بين سائر الموجودات،وفي ضوء ذلك يمكننا أن نقول أن أرسطو كان له بالغ الأثر والأهمية في تطوير فكرة الجوهر، فهو لم يسرف في تجريده لفكرة الجوهر، بل لعب الجوهر في فلسفته دوراً كبيراً لقد استطاع أن يجمع بين ماهو ذهني، وما هو مادي ، حيث جعل المركب من الاثنين، أي الصورة والمادة هو الجوهر الحقيقي.

لعلنا استطعنا أن نبين من خلال التقسيمات المتنوعة والمختلفة لأنواع الجوهر، أنه يوجد فيها جواهر في نطاق الميتافيزيقيا وأخرى تدخل في المنطق، وجواهر ثالثة، مادية ومحسوسة تدخل في العلم الطبيعي، أي يمكننا القول، على النحو الذي قدمناه وعرضناه، تعد فكرة الجوهر ذات طابع ثلاثي، طابع مادي محسوس، وطابع ذهني منطقي، وأخر مجرد في مجال الميتافيزيقيا .

إن كل طابع من هذه القسمة الثلاثية للجواهر تعد فكرة أو جانب من الجوانب التي يدرس فيها الجوهر أي كل بحسب صفاته والسؤال الذي لابد من طرحه في نهاية بحثنا وهو هل من أهمية لدراسة فكرة مضى عليها نحو ثلاث وعشرون قرناً؟ لابد أن نقول نعم إذ أنه من الأهمية المنهجية والمعرفية دراسة هذا النوع من الموضوعات وذلك لأسباب عدة ، منها إن دراسة التراث العلمي والمعرفي له من القيمة ما لأي موضوع أو مشكلة حديثة تعالج موضوعات تمس حياتنا مباشرة،

وإذا كان العلم الحديث والمعاصر يفتخر بعلمائه الذين بحثوا في أصغر أجزاء الذرة، فللمفكرين والفلاسفة السابقين الأهمية ذاتها، فهم كانوا النواة الأولى والباعث الحقيقي على العلم والمعرفة، بالإضافة إلى الدور الكبير للفلسفة القديمة التي كانت سبباً مهماً لتفاعل الثقافات وتلاقح الحضارات.

المصادر والمراجع

1- أرسطو،المنطق،ج1،تحقيق:عبدالرحمن بدوي، دار القلم ، بيروت ،1980.

2- أرسطو، الطبيعة ،السماع الطبيعي، ترجمة: اسحق بن حنين، تحقيق :عبد الرحمن بدوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1984.

3- أرسطو،الكون والفساد ، ترجمة : أحمد لطفي السيد ، دار الكتاب المصرية ، القاهرة ، 1932.

4-رشد، ابن، تفسير ما بعد الطبيعة ، طبعة إيران،ج2، د.ت.

5- أمين، أحمد، نجيب، زكي محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ط9،د،ت.

6- باجة ، ابن ،الرسائل الإلهية ، تحقيق: ماجد فخري، دار النهار،1991.

7- صليبا، جميل ،المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط.1,1971.

8- ستيس ، ولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار الثقافة، القاهرة ،1984.

9- كرم، يوسف ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة،1936.

10- كرم، يوسف ، العقل والوجود ، دار المعارف ، مصر،1964.